



قيم العرب في الشعر الجاهلي

Arabic Virtues in the Pre-Islamic Poetry

نادية حديدان

جامعة العربي التبسي، تبسة (الجزائر)

dianahadidene@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
يتطرق هذا المقال إلى القيم العربية التي كان الإنسان الجاهلي يتميز بها ويتباهى ويفتخر بها في شعره، فقد درج شعراء الجاهلية على تصوير أحوال مجتمعاتهم، فحكوا من خلال أشعارهم عاداتهم وأعرافهم وآمالهم، وفضائلهم التي كان نظامهم القبلي يلج على إرسائها ضمن قوانينه الراسخة، كما تمثلوا الحياة من مختلف جوانبها من حروبها وسلمها، وخيرها وشرها ولهوها وجدّها، وفرحها وحزنها.	تاريخ الارسال: 12 جوان 2021 تاريخ القبول: 17 جويلية 2021
	الكلمات المفتاحية: ✓ الشعر ✓ القيم العربية ✓ الجاهلية
	Article info Received 12 June 2021 Accepted 17 July 2021
Abstract : This article presents an overview of Arabic values that were a distinctive quality and a pride for the pre-Islamic man. The pre-Islamic poets used to describe their societies in their poems depicting traditions, customs and wishes. They also praised the virtues that their tribal social system had established firmly as constant laws. They had also painted, in their poems, different aspect of life, as war and peace, good and evil, entertainment and seriousness.	Keywords: ✓ Poetry ✓ Arabic values ✓ pre-Islamic period

1. مقدمة:

يعد العصر الجاهلي من أغنى العصور الأدبية عند العرب شعراً. فله أثر كبير في هيكلة الشعر في العصور التالية له شكلاً ومضموناً.

لقد كان الشاعر لسان قومه وقبيلته يودع شعره مناقبها، يدافع عن حرمها مادحاً أبطالها، ويهجو أعداءها، يرثي موتاهها وقتلاها ويفخر بمناقبها، فيرفع شأن من يريد ويخفض منزلة من يعارضه. كما أنه هو الذي يشجع الأبطال على القتال ويقوّيهم بأبياته ويهزم الأعداء بتمزيق شوكتهم. فهو راية القبيلة وسيفها القاطع.

عاش العرب إذا في العصر الجاهلي تحت لواء القبيلة، إذ منحتهم العصبية الشديدة حجاباً ضد كل أنواع السطو وأشكال الغزو ومنعتهم من الخيانة والاستهتار بمكانة الانتماء إلى الدم الواحد؛ لأن العقاب يكون شديداً، وعلى الرغم من أن الإسلام حارب العصبية ومنعها حين جاء معلناً أن التقوى هي المقياس للحكم على قيمة الإنسان، إلا أن التعصب قبله لم يكن اختياراً، بل كان شريعة محتومة تقف في وجه الشتات الذي لم يكن لهم - حينها - ما يكفيهم شره في ظل الحروب التي لا تهدأ أو تستكين؛ ولهذا فقد كانت العصبية مكرومة، بل قيمة سامية مثلها مثل القيم التي تبدلت قوانينها مع الزمن لتتحول تبعاً إلى أشكال من المتعاليات الأخلاقية التي يحكمها الدين الواحد.

على ذلك سيكون وقوفنا أمام القيم العربية في العصر الجاهلي - في هذا المقال - مرتبطاً بالاتجاهات الثلاثة الكبرى التي كونت ثقافة العربي وشكلت فكره قيمياً وأخلاقياً، وهي اتجاهات تنضوي تحت لوائها التاريخي كل أشكال التفكير وكل أغراض الشعر، متمثلة في: (القبيلية، الصعلكة، وأيام العرب).

وبهذا سوف نحلل طبيعة القيم بناء على الوعاء الذي يحتويها في كل مرة، وسوف نلاحظ أن تلك القيم في جوهرها واحدة وليست متغيرة أو متناقضة، ولكنها تخضع للسياق التي يوجهها، فما يبدو منطقياً ومقبولاً تحت لواء القبيلة يظهر

مرفوضاً أو غير مستساغ في عرف العرب إن كان آتياً من قبل الصعاليك، وما يبدو في حالة السلم عاراً أو مثبلة تجعله الحرب مفخرة ومدعاة للتبجيل والمدح.

2. علاقة البيئة الجاهلية بأخلاق العربي:

إنّ تأثير البيئة على العربي وأخلاقه أمر أكدّه كثير من الباحثين وعلماء الاجتماع؛ « وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عيّنت لهم تلك القسمة، وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره... والقفور مكان الشظف والسغب... فلا ينزع إليهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه ». (ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد، 2002، صفحة 122) ونقصد بالبيئة هنا كل ما له علاقة بتكون الصفات الجسمانية والنفسية والعقلية للإنسان الجاهلي؛ أي البيئة الطبيعية (الجغرافيا، المناخ... الخ) والبيئة الاجتماعية (القبيلية، الديانات... الخ)، فهما لا محالة مجالان واسعان للتأثير المطلق على نمط التفكير، وعلى تشكل العقل العربي الجاهلي.

ولذلك يردّ بعض الدارسين أخلاق العربي إلى طبيعة البيئة الطبيعية التي عاش في كنفها؛ «... إنّ الجفاف والجذب، ووعورة الحياة هي التي حدّدت القيم الأخلاقية عند العرب فشعور العرب بالضعف أمام قوّة الطبيعة، وقسوتها هو الذي فرض عليهم تقديس القوّة والبسالة وهو الذي جعلهما مبدأ من مبادئ السيادة عند العربي، وهو كذلك الذي ولّد الشعور بالحاجة إلى واجب مقدّس وهو واجب الضيافة والنجدة والمروءة ». (العشماوي، محمد زكي، 1980، صفحة 220).

3. القبيلة والقيم الجاهلية:

من يقرأ تاريخ الأمة العربية في الجاهلية، سيلاحظ أنّ النظام القبلي هو النظام السائد والمعترف به في الحضر وفي البادية، ولذلك لم يكن العربي يشعر بالأمان إلا في حدود تلك القبيلة، لكن وعلى الرغم من تشتت العرب السياسي في الظاهر،

ومّا لا شكّ فيه أنّ الشعر الجاهلي لم يخل من الإشادة بالقيم النبيلة سواء أتعلق الأمر بالشهامة، والكرم، والصدق، والعفة أم تعلق بالمآثر التي يتركها الجاهلي في ساحة القتال، وإن بدا الأمر عدوانيا أو عنيفا، تلك المآثر كانت تصدر عن شاعر فحل سيد في قومه، أو عن شاعر بسيط ذي نزعة إنسانية سامية، أو صاحب إحساس مرهف يمنح غيره أعزّ ما يملك دون خوف، أو تردّد، فيشارك قومه نواب الدهر دون أسف، يقول (عقال بن مروان بن أحكم القيسي):

وَأَجْرُوا إِلَيْهَا وَاسْتَخْلُوا الْحَارِمَا
فَلَمْ تَنْجُ مِنْهَا يَا ابْنَ وَبَرَةٍ سَالِمَا
فَطَرِثُمْ وَطَارُوا يَضْرِبُونَ الْجَمَاجِمَا
وَمَا بَعْدُ لَا يُدْعُونَ إِلَّا الْأَشَائِمَا.

(التميمي، معمر بن المثنى أبو عبدة، 2003، صفحة 92.93)

يحافظ على هدوئه واتزانه، ويحترم حرّية غيره، مالم يتطاول عليه غيره، فإن ظلم فإنه يردّ بقوة وبأس شديدين، وفي ظلّ ذلك يظلّ متمتعاً بجلّ شمائله التي يعتزّ بها كلّ إنسان كريم النفس، كما هو الأمر عند (عنتر بن شدّاد العبسي) الذي يخاطب الناس من خلال مناجاة امرأته، مبيناً بعضاً من تلك الخصال حين يقول:

سَمَحَ مُحَالِقَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمَ
مُرَّ مَذَاقَتُهُ كَطَعِ الْعَلَمِ
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
مَالِي وَعَرْضِي وَافِرٌ لَمْ يَكَلَمِ
وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكْرُمِي

(ابن شدّاد، عنتر، 1983، الصفحات 186-222).

ولم تكن الخمر في شريعة الجاهليين عارا، إلا إذا أدت بشاربها إلى ارتكاب ما يخالف حسن الجوار أو التقاعس عن أداء واجباته تجاه قبيلته، أما ما عدا ذلك فهي في مجالس الأُنس رفيقة النبلاء

ربطت بينهم وحدة في الأفكار، والديانة، والعادات واللغة، جعلت منهم أمة واحدة. «ولقد أوجد هذا النظام القبلي المحدود رابطة قوية بين الفرد، والقبيلة فالفرد كان له على القبيلة حقّ الحماية، ليس في الحياة فقط، بل تتعدّى الحياة إلى الموت ممثلة في الأخذ بثأره مثلا، أما القبيلة، فلها على الفرد الخضوع لرأيها الجماعي». (خليف، يوسف، 1966، الصفحات 92-95) فالقبيلة لا ترضى أن تتعرض وحدتها للتمزّق، ولا لخلق جفوة ربّما أدّت إلى حروب دامية بينها وبين القبائل الأخرى، استجابة لنزوة من نزوات بعض أفرادها.

هُمْ فَطَعُوا الْأَرْحَامَ بَنِي وَبَيْنَهُمْ
فَمَا تَدْعِي مِنْ خَيْرِ عَدُوَّةٍ دَاحِسٍ
وَكَانَتْ بَنُو ذُبْيَانَ عِزًّا وَأُخُوَّةً
فَأَصَحَّتْ زُهَيْرٌ فِي السَّنِينَ الَّتِي مَضَتْ

فقد كانت الحرب شؤما معترفا به من الجميع، ولكنها أيضا صنعت فرسانا ظل صيتهم صادحا خالدا أبد الدهر. وليس هذا فحسب، بل إنّ هناك شعرا غزيرا قيل لتمجيد قيم إنسانية واجتماعية أقرّها المجتمع الجاهلي، ففي ضوء الحياة القاسية التي عاشها هذا الإنسان في صحرائه الواسعة، كان لزاما عليه أن يظلّ يقظاً حادّاً في تعامله مع الحياة العاقمة، ليستطيع التفوّق على غيره ويشبع شعوره بالعزة والقوة، ويرضي بذلك نفسه أولاً، وقومه ثانيا، ومع ذلك فإنّ هذا الشاعر الفارس

أَنْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنْ ظَلَمِي بِأَسْلٍ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمَدَامَةِ بَعْدَمَا
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى

فيصوّر الشاعر في هذه الأبيات مجموعة من الخصال الإنسانية التي تأصّلت في نفسه، وأضحت تلازمه، فهو ذو أخلاق نبيلة، وطيب المعشر، كريم النفس سمح في معاملة الناس، بيد أنّه ذو بأس شديد حين يُعتدى عليه، فوقتئذ يصبح الردّ مشروعا.

والسادة، وهي أيضا دليل على الانتصار والفرح به بعد يوم طويل من القتال، أو استعدادا له؛ يقول (عمرو بن كلثوم):

أَلَا هِيَ بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَ وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ الْحَصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا
تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
إِذَا صَمَدَتْ حُمَيَّاهَا أَرِيئَا مِنَ الْفَتَيَانِ خِلَتْ بِهِ جُنُونَا.

(ابن كلثوم، عمرو، 1996، صفحة 64.66)

أما (طرفة بن العبد) الذي جعلته الخمر في أدنى درجات القيم القبلية، حين اعتزل ساحات القتال والمروءة، وركن إلى المتعة الفجة ليصور بعضا من تمرده على قبيلته، فإن القبيلة لم تقم عليه نواحا ولا عويلا، وإنما عزلته عزل البعير الأجرب، وهو القائل:

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَدَّتِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا
وَيَبْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعْبَدِ

(ابن العبد، طرفة، 2000، صفحة 25)

نصيبا يسمّى المعلّى. أما الأربعة الباقية فلا حظّ لها حتى إن فازت». (ضيف، شوقي، د ت، صفحة 71). وفي ذلك يقول (ليبد بن ربيعة) في معلقته:

ومهما يكن من أمر فقد كانت الخمرة شائعة في هذا العصر، وكان يشيع معها القمار والميسر. « وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيرا، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء، ثم يأتوا بأحد عشر قدحا، يجرون عليها قمارهم، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيبا إن فازت، وعلى أصحابها غرم إن خابت، وأكبرها

وَجُزُورُ أَيْسَارِ دَعَوْتُ إِلَى النَّدَى بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

(ابن ربيعة، ليبد، 1996، صفحة 235)

وقد تغنى العرب بالكرم أيضا، لكن الكرم الجاهلي يختلف من حيث الدرجة، فأن يعطي الإنسان شيئا ما وهو ميسور الحال، ليس نفسه درجة العطاء حين يكون ذلك الإنسان أولى بهذا العطاء، لكن سمعة الرجل الجاهلي وشرفه بين القبائل كان منوطا بمقدار جوده وكرمه؛ يقول (حاتم الطائي):

فاقتزان الخمر بكل أنواع اللهو الأخرى لم يكن عجبا في المجتمع الجاهلي، إذ سمحت القبيلة لشبابها بكل أنواع المتع ما لم يجزوا عليها حربا أو يؤدّوا بها إلى هجاء يدي همتها، أو يسقط مكانتها بين العرب.

إِذَا النَّارُ مَسَّتْ جَانِبَيْهَا أَرْمَعَلَتْ

وَلَا يُنْزِلُ الْمَرْءُ الْكَرِيمُ عِيَالَهُ

وَأَضْيَافُهُ مَا سَاقَ مَا لَا يَضُرَّتْ.

(الطائي، حاتم، 2002، صفحة 11)

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ هَرَّتْ كِلَابُهُمْ

صَبْرْتُ بِسَيْفِي سَاقَ أَفْعَى فَخَرْتُ

فَقُلْتُ لِأَصْبَاهِ صِغَارٍ وَنِسْوَةٍ

بِشَهْبَاءٍ مِنْ لَيْلِ الثَّلَاثِينَ قَرَّتْ

عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّطِطَيْنِ كُلِّ وَرِيَّةٍ

العواذل على ما يقدمه للآخر من عطاء غير محسوب، وإن كان في ذلك تبذير وإسراف للمال كما يرونه، فيقول في قصيدة تجمع الفخر بالزرد الحازم، بل وتؤسس لقيمة الكرم كما أثرت عن (حاتم الطائي) وكما يحب العرب أن تشيع بينهم:

وَقَدْ غَابَ عَبَوقُ الثُّرَيَّا فَعَرَّدَا
إِذَا ضَنَّ بِالْمَالِ الْبَخِيلُ وَصَرَّدَا
أَرَى الْمَالَ عِنْدَ الْمُتَمَسِّكِينَ مُعَبَّدَا
وَكُلُّ أَمْرٍ جَارٍ عَلَيَّ مَا قَدْ تَعَوَّدَا
فَلَا تَجْعَلِي فَوْقِي لِسَانَكِ مَبْرَدَا
يَقِي الْمَالَ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا
أَرَى مَا تَرَيْنَ، أَوْ بَخِيلًا مُخَلَّدَا
إِلَى رَأْيٍ مِنْ تَلَحُّجٍ رَأَيْكَ مُسْنَدَا
وَعَزَّ الْقَرْىَ أَقْرِي السَّدِيفَ الْمُسْرَهْدَا
وَمِنْ ذُونِ قَوْمِي فِي الشَّدَائِدِ مَذُودَا
وَحَقَّهُمْ حَتَّى أَكُونَ الْمُسَوَّدَا
وَأَسْـمَرَّ خَطْبًا وَعَضْبًا مُهْنَدَا
مَصُونًا إِذَا مَا كَانَ عِنْدِي مُتَلَدَا

(الطائي، حاتم، 2002، صفحة 17.18)

إن القيمة الحقة التي يتغيها الشاعر هنا ليست ذكره بالكرم فحسب بل هي خلود ذكره فارسا بين الفرسان؛ لأن كنزه وذخره الحقيقي هو سيفه البتار الذي يحمي به شرف القبيلة إن استدعى الأمر القتال، كما يحميها بماله كرما وجودا وعطاء. وقد أطلقت النظم القبلية تسميات مختلفة على المبادئ والقيم المتعارف عليها في العصر الجاهلي على الرغم من الغلو الذي كان كثيرا ما يسمها؛ فمن الشطط في التهور علت قيمة الشجاعة، ومن سرعة الغضب والثأر سمت قيم النجدة والجوار والتضحية، ومن المبالغة في العطاء أصبحت قيمة الكرم مثالا للأخلاق الرفيعة التي لا يمكن بلوغها إلا نادرا؛ ولهذا فقد منحت لذوي الأخلاق الرفيعة صفات تجعلهم في مصاف النبلاء والشرفاء، يحصلون من خلالها على ألقاب تركيهم داخل

فالشاعر هنا يقدم مشهدا من مشاهد الكرم في الليالي الظلماء كثيرة الثلج، التي كان يختفي فيها القوم بردا في خيامهم، لكنه لا يفعل مثلهم بل إنه يهرع إلى أكثر نوقه سمته فيعقرها لمن هو في حاجة إليها وإن كان هو نفسه على ضرة وحاجة شديدة. وكذلك لا يقبل (حاتم الطائي) - وهو مثال خالد للجد والكرم والنبل في التاريخ العربي قبل الإسلام - أن يعاتبه

وَعَادِلَةٌ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي
تَلُومٌ عَلَى إِعْطَائِي الْمَالَ، ضَلَّةٌ
تَقُولُ: أَلَا أَمْسِكُ عَلَيْكَ، فَإِنِّي
ذَرَبْنِي وَحَالِي إِنَّ مَالَكِ وَافِرٌ
أَعَادِلُ لَا أَلُوكِ إِلَّا خَلِيقَتِي
ذَرَبْنِي يَكُنْ مَالِي لِعِرْضِي جَنَّةٌ
أَرَبْنِي جَوَادًا مَاتَ هُزْلا لَعَلَّنِي
وَالَا فَكُفِّي بَعْضَ لَوْمِكَ وَاجْعَلِي
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا الصَّيْفُ نَابَنِي
أَسْوَدُ سَادَاتِ الْعَشِيرَةِ عَارِفَا
وَأَلْفَى لَأَعْرَاضِ الْعَشِيرَةِ حَافِظَا
سَادُخَرٌ مِنْ مَالِي دَلَاصًا وَسَاجَا
وَذَلِكَ يَكْفِينِي مِنَ الْمَالِ كُلِّهِ

والحقيقة أن اختيارنا هذه القصيدة للدلالة على قيمة الكرم لم يكن مجرد تمثيل لما قاله الشعراء عن هذه الفضيلة، بل لأنها جمعت من المبادئ التي كان يحرص عليها الجاهلي الكثير، فالقيمة الواحدة لم تكن مرغوبة لذاتها كما يبدو هنا، بل لأنها تؤدي إلى سلسلة من القيم الأخرى التي لا يمكن للعربي أن يتخلى عنها، فهي إن تركت سقطت معها مكارم أخلاق وذكر أنساب ومفاخر عشائر لا يمكنهم استدراك مجدهم بعدها، وهو ما يحاول (الطائي) أن يوضحه للعائلة، فالكرم بالنسبة إليه ليس تبذيرا للمال بقدر ما هو ذود عن شرف العشيرة التي ينتمي إليها والتي صار بها سيدا عظيما بفضل كرمه، الذي ينوب به عن كل جامع للمال بينهم وإن كان أغنى منه.

الحميدة الأخرى». (القيسي، نوري حمودي، 2004، صفحة 31)

فالفتوة إذا فضيلة لا تتأتى لكل فرد؛ لكنها منحة قبلية توطد علاقة الإنسان بأهله وبقبيلته، حتى وإن كان الثمن التنازل النهائي عن الخصوصية أو الفردانية، أو الحرية الشخصية في سبيل التبعية المطلقة إلى القبيلة التي توفر شرف الانتماء، وتأخذ مطلق الوفاء:

كَمْ مِنْ فَتَى فِيهِمْ أَخِي ثَقَّةٍ حَرَّ أَعَرَ كَفَرَةَ الرَّيِّمِ
لَيْسُوا كَأَقْوَامٍ عَلِمَتْهُمْ سُودُ الْوُجُوهِ كَمُعَدَنِ الْبُرْمِ.

(ابن شداد، عنتره، 1983، صفحة 267)

المجتمع الجاهلي، ومحورا تدور حوله أوضاعه، وتقاليده ونظمه الاجتماعية، والمعروف أن قيمة الجوار كانت من القيم التي لا يتوانى العربي عن إقامتها في قبيلته مهما كان الثمن؛ ولهذا لم تكن (البسوس) لتظلم في ديار (جساس بن مرة) بعد أن قالت:

لَعَمْرُكَ لَوْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ مُنْقِدٍ لَمَّا ضَيِّمَ سَعْدٌ وَهُوَ جَارٌ لِأَيَّاتِي
وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ مَتَى يَغْدُ فِيهَا الذَّنْبُ يَغْدُ عَلَى شَاتِي
فَيَا سَعْدُ لَا تَغُرِّرْ بِنَفْسِكَ وَارْتَحِلْ فَإِنَّكَ فِي قَوْمٍ عَنِ الْجَارِ أَمْوَاتُ
وَدُونِكَ أَدْوَادِي فَإِنِّي عَنْهُمْ لَرَأِحِلَّةٌ لَا يُفْقِدُونِي بُنْيَاتِي
وَسِرْ نَحْوَ جُرْمٍ فَإِنَّ جُرْمًا أَعَزَّ وَلَا تَكْ فِينَا لَاهِيًا بَيْنَ نِسَوَاتِ.

(ابن حلزة، الحارث، 1996، صفحة 73)

(الجمحي) في قوله: «وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون». (الجمحي ابن سلام، 1980، صفحة 24)

ولهذا فإن (جساس بن مرة) لم يقف ساكنا أمام تلميحات (البسوس) فهبت لنجدة شرفه حالا وهو يقول:

تَأَهَّبْ مِثْلَ أَهْبَةِ ذِي كِفَاحٍ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَلٌّ عَنِ التَّلَاحِي
وَإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ حَرْبًا نَغِصُ الشَّيْخَ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ
مُذَكَّرَةً مَتَى مَا تَصَحُّ مِنْهَا شَبَّ لَهَا بِأُخْرَى غَيْرَ صَاحِي
تَعَدَّتْ تَغْلِبُ ظُلْمًا عَلَيْنَا بِلَا جُرْمٍ يُعَدُّ وَلَا جُنَاحِ
وَمَالِي هِمَّةٌ أَرْجُو أَحَاها سَوَى الْخَطِي وَالْفَرَسِ الْوَفَاحِ.

(ابن حلزة، الحارث، 1996، صفحة 77.78)

قبائلهم وترفع ذكرهم بين القبائل الأخرى، يحوزونها بمشقة وتعب ولا يتخلون عنها حتى وإن هلكوا في سبيلها؛ ومن ذلك صفة (الفتى) «فالفتي في عرف القدامى هو الإنسان الذي تتجسد فيه الصفات التي تتطلبها القبيلة على أتم وجه، فهي شجاعة في القتال تضمن حماية القبيلة، وكرم يصون اسمها ويرفع ذكرها، وشهامة تزيد مركزها علوا وشموخا، ومروءة تجمع الخصال

فبالشعر يصوّر لنا الشاعر الجاهلي الحياة الاجتماعية في الجاهلية، وعادات العرب أصدق تصوير. فلم يكن الشعراء في العصر الجاهلي إلا أفراداً من ذلك المجموع، الذي كان يؤمن بالعصبية القبلية إيماناً يجعل منها الأساس الذي يقوم عليه

ولم تكن هناك خلّة تؤكّد معنى العزة والكرامة إلا وقدحوا بها في شعرهم، فهم يتمدّحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما يتمدّحون بالأنفة وإباء الضيم، وكيف يقبلون الضيم وهم أهل حرب وجلاد؟ وقد قال الشعر كلمته وأقام الحجة على الفاعل والمفعول كما أشار إلى ذلك (ابن سلام

تراها في أخيها، وترنو بها إلى المثال والقودة في الفتى العربي من خلاله، فهي ظاهراً كانت تبكيه وجوهاً كانت تبكي ميزاته ومبادئه التي أملت أن تظل راسخة يحتذي بها كل عربي شهم، ومن بين ما تقول:

وَأَنَّ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
جَلْدٌ جَمِيلٌ الْمُحْيَا كَامِلٌ وَرِعٌ
شَهَادُ أُنْدِيَةِ لِلْجَيْشِ جَرَّارُ
لَرَبِيَّةٍ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ.

(الخنساء، 1996، صفحة 47)

ومصوّر وفنان أيضاً، فالقبيلة يعتمل في نفسها الإحساس بالاعتداد والشموخ، وما لم يكن هناك شاعر ينقل ذلك الإحساس إلى حقيقة من الكلام الجميل المنتقى الذي يصوّر أعمالها، ما كان لهذه القبيلة أن تعزّز بشموخها وكبريائها وبِعظم أيامها، ومفاخرها.

4. الصلعة والقيم الجاهلية:

اختلفت القيم التي تغنى بها الصعاليك في العصر الجاهلي؛ بسبب اختلاف البيئة البشرية التي صاروا ينتمون إليها إثر خروجهم عن نظام قبائلهم؛ فانتماؤهم إلى أنفسهم وإلى أفكارهم الحرة أخرجهم من دائرة الجماعة الحاكمة إلى دائرة الجماعة المنبوذة، فكان لا بد لهم أن ينشئوا تبعاً لذلك قيمهم الخاصة وأن يتحدثوا السلطة في سبيل الإبقاء على حياتهم.

لقد كانت قيم الصعاليك إضافة معنوية مهمة إلى الحياة التي كانوا يعيشونها، كما أنّها مثلت انعكاساً لطريقة مختلفة في التفكير والتعامل مع الآخر «أي إن المناخ العام الذي حفل به شعر الصعاليك هو مناخ تراجيدي، وصحيح أننا نقرأ دائماً في أشعارهم تحدياً للمجتمع الذي نفاهم وللطبيعة، ونراهم يجسدون قدراتهم في الشجاعة والعدو والكرم والإيثار ومقاومة الجوع والعطش والوحوش الكاسرة والظلام المخيف، وجفاف الصحراء، لكن كل هذا لا ينفي أن أشعارهم مبطنة بمساحة واسعة من الحزن وامتداداته، بل إن الجانب الظاهر الذي يتمثل

فهو هنا يقف فارساً من أجل حماية قيمة الجوار والدود عمن كان في بيته ضعيفاً، فقد كان من العار أن يصاب الضيف بسوء دون أن يتحرك رب الدار للأخذ بحقه.

وقد جمعت (الخنساء) في مآثرها الشعرية في رثاء أخيها (صخر) كل قيم العرب النبيلة، وجسدتها فيضا من المزايا التي كانت

و(الخنساء) هنا تجمع بين كل الصفات النبيلة والقيم التي كان الرجل العربي يفاخر بها القريب والغريب، وقد كان شعرها مخلداً لتلك القيم تخليداً مبهرًا، فكل قارئ يعرف (صخرًا) حق المعرفة مع أن لا أحد يعرف فعلاً إن كان (صخر) حقيقة أم كان مجرد تجسيد لما أرادت له (الخنساء) أن يبقى في الذاكرة العربية بشعرها إلى الأبد.

ومن هنا كانت منزلة الشاعر الجاهلي في قبيلته رفيعة، وفي ذلك يقول (ابن رشيق): «كانت القبيلة من العرب، إذا نبغ فيها شاعرٌ أتت القبائل فهنّأته، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال، والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذُبُّ عن أحسابهم وتخليد لماثرهم، وإشادة بذكورهم». (القيرواني، ابن رشيق، 1934، صفحة 49) ولهذا كان الشاعر الجاهلي معبراً صادقاً عن مشاعر قبيلته، ورغباتها واتجاهاتها.

كما يرى (أحمد أمين): «أنّ أكثر الشعراء في الجاهلية من أكرم الناس على قومهم، لأنّ موقف الشاعر في قبيلته كان التغيّ بمنابقتها، ورثاء موتها، وهجاء أعدائها». (أمين، أحمد، 1964، صفحة 56)

وإذا كانت القبيلة تسعد بميلاد شاعر جيّد فذلك مردّه إلى ترسيخ قيمها وتسجيل مآثرها، وكأنّ الشاعر هنا يقوم بعدّة أدوار لا بدور واحد فقط، فهو بوق إعلامي وهو مؤرّخ،

على ذلك نصادف تلك القيم في أشعارهم بمثابة الثورة المشوبة بالغضب العارم العنيف، يقول (تأبط شراً).

وَلَسْتُ أَبِيتُ الدَّهْرَ إِلَّا عَلَى فِتْيَ أَسْلِبُهُ أَوْ أَذْعُرُ السَّرْبَ أَجْمَعًا.

(تأبط شراً، 1973، صفحة 100)

المكارم؛ فهي شجاعة لا مثيل لها، بفضلها يتمكن الشاعر من الإبقاء على حياته وعلى حياة من هم في عهده من الصعاليك.

كما يقول (الشنفرى):

أَقِيمُوا بَنِي أُمَيِّ صُدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُمْ لَأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقَمَّرٌ
وَشُدَّتْ لَطِيَّاتُ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مُتَعَزِّلٌ.

(الشنفرى، 1991، الصفحات 58-61)

مرآة انعكست فيها قيم القبيلة التي تحاول العصبية والولاء إخفاءها.

والحقيقة أنه على الرغم من التهميش الذي طال الصعاليك حينها، إلا أن مجتمعهم الجديد أرسى قواعد صارمة للثورة على المهانة والظلم، لم تكن مختلفة عن طبيعة العرب ولا عن أعرافهم، ولكنها رفضت من قبل القبيلة لأنها كسرت سلطتهم ونالت من سيادتهم فقط.

وقد جمعت (لامية العرب) الشهيرة لـ(الشنفرى) قيما أخلاقية عالية، استحققت بجدارة أن تكون ديوان العرب الأخلاقي بلا منازع، وفيها يقول:

وَإِذْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الرَّادِ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةً عَنْ تَفَضُّلٍ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ
وَأَسْتَفْتُ تَرْبَ الْأَرْضِ كَيْ لَا يُرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطُّولِ امْرُؤٌ مَتَطَاوِلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الدَّامِ لَمْ يُلَفْ مَشْرَبٌ
يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلَكِنَّ نَفْسًا حُرَّةً لَا تُقِيمُ بِي
عَلَى الضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمًا أَمَحُولُ.

(الشنفرى، 1991، الصفحات 61-66)

أن يكون في مصاف الرعاع المتدافعين على المأكول والسفاسف تدافع البعوض على قاذورات الحياة.

في التحدي المذكور هو نوع من أنواع ردّ الفعل على حالة تراجيدية عميقة زرعتها المجتمع في نفوسهم حين أهملهم وظلمهم وطردهم». (العساف، عبد الله خلف، 2007، صفحة 10)

فالشاعر هنا يتغنى بفضيلة صعلوكية تعدّ من باب الشرّ بالنظر إليها من خارج مجتمع الصعاليك؛ وهي السلب والنهب وبث الذعر في نفوس الناس الآخرين، لكن بيئة الصعاليك وحرصهم الشديد على حياتهم جعلتهم يصنفون هذه التصرفات في باب

ففي هذه الأبيات تبدو نزعة العربي إلى الكرامة والحرية واضحة عميقة، فالشاعر يجسد قيمة إنسانية لم يكن العربي ليتنازل عنها وإن دفع روحه ثمنًا لها، فأنفته جعلته يغادر دياره ثائرًا على عبوديته ورافضًا ذلّ البقاء هزيل الروح منتقص الشرف، وهو «...» لم يكن يفعل ذلك تعالياً على هذا الواقع وإنما انتقاماً منه؛ والانتقام انخراط وذوبان معاكس للواقع، ولكنه لا يحمل في داخله أية بذرة للتعالي عليه، ولقد آذى الواقع الصعلوك لأسباب مادية اجتماعية، وألهبت نفسه أعراف وتقاليد لم يكن له ذنب في استقرارها بهذا الشكل». (أنس الوجود، ثناء، 2000، صفحة 140) لذلك فإن قيمه الجديدة كانت بمثابة

فالشاعر يحمل نفساً أبية كريمة لا جشع فيها ولا طمع، وهو رجل متفضّل على من هم دونه مكانة وقدرًا وصحة؛ لأنه يأنف

يقاومون غدر الأقوياء وسلطان الظالمين.

ولم تكن (الأيام) مجرد مظهر من مظاهر الإبقاء على الحياة بالنيل من الآخر، بل كانت مظهرا من مظاهر الشجاعة المتأصلة في نفوس العرب، وقد عُرف الإنسان العربي بالشجاعة والإقدام فسجل ذلك في شعره. والشجاعة عند الجاهلي تعني الإقدام على الحياة، والإقبال على كل ما فيها من ملذات وآلام دون خوف، أو خجل، فقد كانت طبيعة العربي مجبولة على الصراع مع الطبيعة دون خضوع.

ومن ضمن الأمور التي تدفع العربي القديم إلى الشجاعة في الحرب، إيمانه بأنه لا مفر من الموت، وأنّ الجين لا يقي من الموت، ومن ثمّ فقد تعود العربي على الإقدام وحرص على تعليمه لأبنائه، ولقد بلغ من شدة حبه للإقدام أنّه كان يمتدح الظلم أحيانا أو التعجيل بالحرب، يقول (عمرو بن كلثوم) في معلقته:

فنجهل فوق جهل الجاهليينا

(ابن كلثوم، عمرو، 1996، صفحة 71)

29) فالحرب الجاهلية لم تكن حرب سطو ونهب وغزو فحسب، بل كانت حرب موثيق وتعاهدات تظهر فيها قيم الوفاء والجوار، وتتأصل فيها قيم التحالف والنصرة والمساندة، على الرغم من أنها قد تنال من العدو حيناً ومن الأخ حيناً آخر، يقول (القطامي):

وَأَعَزَّوْهُنَّ هَبَّ حَيْثُ كَانَا
وَصَبَّةٌ إِنَّهُ مِنْ حَانَ حَانَا
إِذَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا.

(الطائي، أبو تمام، 1987، صفحة 125)

وامتاز العربي بقوة الحافظة، ومن مظاهرها حفظهم لأنسابهم، ومعرفة أحسابهم وأصولهم، وحفظهم لها جعلهم يعرفون ما انتهت إليه أيامهم الماثورة من انتصار أو غدر أو هزيمة، وما تركت من ثار ومن جفوة ومن سوء جوار، وفي ذلك يقول (شوقي ضيف): «لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب، ممّا سجله العباسيون في

وفي شعر الصعاليك الكثير من القيم التي لا تنبع إلا من روح متشعبة بمعاني الإباء والكرامة والأنفة، فهم بجانب الضعفاء

5. (الأيام) وقيم العرب:

لم تكن (أيام العرب) في الجاهلية مظهرا من مظاهر التهور والغزو وسفك الدماء فقط، بل كانت تمثل في جوهرها قيمة من قيم التضحية في سبيل الحياة الكريمة، وفي سبيل الحفاظ على مكانة العربي بين القبائل الأخرى، والحقيقة أن (الأيام) كانت واقعا حيا يعكس نفسية البدوي الذي يعاني قسوة المناخ وشساعة الصحراء وقيلظها؛ فانطبع في نفسه الإحساس الدائم بضرورة الحفاظ على حياته ضد كل أنواع الخطر؛ سواء أكان خطرا بشريا أم طبيعيا... فقد أوجد في شخصياتهم لونا من التضاد النفسي، اضطبغت عناصره بما في البيئة الجغرافية من لوني المبالغة وعدم الاستقرار، وظهر هذان اللونان الصارخان في نفوس البدو في كلا الجانبين الأخلاقيين: جانب الخير وجانب الشر». (الفاخوري. حنا، 2003، صفحة 57).

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا

يقول (عمر الدسوقي) عن شجاعة العربي وارتباطها ببعض الفضائل والصفات الإنسانية الأخرى: «وكان من أبرز صفاتهم شجاعة فيها قوة، وتحدّ للمنيّة وفيها دربة وتفوق في استعمال الأسلحة المختلفة، وفيها إنسانية وكرم، وإنصاف للأعداء، ووفاء بالوعد». (الدسوقي، عمر، 1951، صفحة

وَكُنْ إِذَا أَعَزَّ عَلَى ضَبَابٍ
أَعَزَّ مِنَ الضَّبَابِ عَلَى حُلُولٍ
وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرِ أَخِينَا

لقد أفاد الباحثون من هذا الشعر فعرفوا منه أيام العرب وحروبهم وأخلاقهم، واستدلّوا به على ما كان من العرب في جزيرة العرب، وما فيها من بلاد وجبال وسهول ووديان ونبات وحيوان، كانت تقوم الحرب أحيانا من أجلها، وكذلك ما كانوا يعتقدون به من جنّ وخرافات وطقوس لدفن قتلى الحرب أو للأخذ بثأرهم، وهو ما كان يتركهم أبدا في حالة قتال.

مجلدات ضخمة. وكأهم رأوا في ذلك كله تاريخهم، فكانوا يروونه ويحفظونه أبنائهم». (ضيف، شوقي، د ت، صفحة 83)

فأنساب العرب إنما علا ذكرها وتبوأ القبائل الشريفة مكانتها بعدها بين مختلف الأقوام بفضل انتصاراتها في الحروب التي كانت تقام بينهم، أم القبائل المهزومة الضعيفة فلم يكن لها في قائمة الأنساب الشريفة ذكر، يقول (عنتر):

لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ مَرَّةٍ إِذْ دَعَا
إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبَسٍ مَنْصَبَا
وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلُهُ
وَدُعَاءَ عَبَسٍ فِي الْوَعَى وَمُحَلِّلِ
شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمَنْصَلِ
حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ.

(ابن شداد، عنتر، 1983، الصفحات 247-250)

فقد كان للعرب في الجاهلية معرفة بالأنساب، وهو ما افتخرت به العرب على العجم، فكان للأنساب شأن كبير عند العرب لصلتها بالتناصر على الأعداء أو بالتفاخر بالآباء، كما يقول (عنت الشراوي): «قد بالغ العرب في معرفة أنسابهم فرتبوها في طبقات أولها: الشعب ثم القبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ فالفضيلة». (الشراوي، عنت، 1979، صفحة 178)

وقد كانت (أيام العرب) إلى جانب الفخر محفلا للهجاء ومحاوله للنيل من سمعة الفرسان والقبائل الخائنة، لأن الوفاء في الحرب كان فضيلة وقيمة سامية، ولم تكن العرب ترضى أن تقوم قبائل على حساب قبائل أخرى بالغش أو بالقتال الكاذب، تقول (دختنوس بنت لقيط) بعدما قتلت (عبس) أباه، ثم أخذ القوم يضربونه وهو ميت:

أَلَا يَا لَهَا الْوَيْلَاتُ وَبَيْلَةٌ مَنْ بَكَى
لَقَدْ ضَرَبُوا وَجْهًا عَلَيْهِ مَهَابَةً
فَلَوْ أَنْكُمُ كُنْتُمْ غَدَاةَ لَقَيْتُكُمْ
غَدَرْتُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ مِثْلَ خَضْبٍ
لِضَرْبِ بَنِي عَبَسٍ لَقَيْطًا وَقَدْ قَضَى
وَمَا تَحْفَلُ الصُّمُّ الْجَنَادِلَ مِنْ رَدَى
لَقِيْطًا صَبَرْتُمْ لِلْأَسْنَةِ وَالْقَنَّا
أَصَابَ لَهُ الْقَنَاصُ مِنْ جَانِبِ الشَّرَى.

(التيمي، معمر بن المثنى أبو عبيدة، 2003، صفحة 108)

وهنا تجتمع رؤى شرعية متفاوتة الدلالة في هذه الأبيات، فالشاعرة تهجو قوما أهانوا فارسا ميتا، مبينة أن ذلك ليس فعلا رجوليا أو فضيلة قام بها هؤلاء القوم، ومن جهة أخرى تقيم للتأثر بيانا شديد اللهجة والأثر، فالدعوة إلى الأخذ بحق الميت لا عودة عنها في شريعة العرب، بل إنها تعد قيمة من القيم التي لا يتشبه بها إلا من كانت نفسه عزيزة ومكانته سيدة. يقول (شوقي ضيف) في هذا: «كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالتأثر، فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم». (ضيف، شوقي، د ت، صفحة 62) والسبب في اهتمام الجاهليين بعادة الأخذ بالتأثر هو الحرص الكبير على

كرامة العشيرة أو القبيلة حتى لا يستهان بها فتستذل وتستأصل. لكن وإن كان شعر (الأيام) قد أرسى ركائز قيم الفروسية والقوة والنصر، فإنه أنبت من حكماء الشعراء وخيار السادة من الشرفاء من قلب موازين التفكير الجاهلي، ومهد السبيل إلى الانتباه إلى قيم السلم والعفو والمتعايش بين القبائل من الإخوة وبني العمومة، ولا بد أن معلقة (زهير بن أبي سلمى) كانت إحدى أهم القصائد التي تركت أثرا عظيما عن فضائل العرب وقت السلم:

سَعَى سَاعِيًا غَيْظَ بِنُ مَرَّةً بَعْدَمَا
يَمِينًا لِنَعْمَ السَّيِّدِينَ وَجَدْتُهَا
تَدَارَكْتُهَا عَبَسًا وَذُبِّيَانِ بَعْدَمَا
وَقَدْ قُلْتُهَا إِنَّ نَذْرَكَ السَّلَامَ وَاسِعًا
فَأَصْلَحْتُهَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنِ
تَبَزَّلَ مَا بَعْدَ الْعَشِيرَةِ بِالْذَّمِ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمَبْرَمِ
تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسَلَمِ
بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمِ.
(ابن أبي سلمى، زهير، 1964، الصفحات 14-18).

وهنا لا نصادف قيم الحرب تنتهك على يد الشاعر ومن خلال ذكر السيدين الكريمين اللذين دفعا ديات القتلى وأهيا الحرب فحسب، بل ننتبه إلى توافر قيم أخرى أهمها قيمة الكرم، فلولا الكرم المتأصل في نفسية العربي ما استطاع هؤلاء هزيمة الشر الذي ظل بين بني العمومة أكثر من أربعين عاما، يحصد الأرواح ويبتذل معاني الإنسانية دون أدنى تفكير أو تدبر. كما يمكننا أن ننتبه إلى أن غرض المدح قد امتلك الباع الواسع في التنظير للقيم العربية، وعلى الرغم من أن المدح في حد ذاته

قد يكون ارتكازا على المثال، إذ ليس بالضرورة أن تتواجد تلك الفضائل في الممدوح، إلا أن تلك المثالية تنم عن تواجد قيم حية في الضمائر العربية، سواء أقاموها بذلك الشكل في حياتهم فعلا أم سعوا إليها من خلال تصرفاتهم الفردية أو انتماءاتهم القبلية أو حتى مواقعهم السلطوية، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

عِندَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصَّرِّ
وَصَلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّا
وَهَوَانُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْرِ
وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلْتَ إِذَا الْعِذْ
وَوَفَاءٌ إِذَا أَجَزْتَ فَمَا غَرَّ
إِنْ يُعَاقَبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْ
عِ وَحَمَلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ
سُ وَفَكَ الْأَسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ
رِ إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورَ الْعَوَالِ
رَةِ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبَخَالِ
تُ حِبَالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ
طِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُيَالِي.

(الأعشى، 2012، صفحة 09)

إلى آخر القصيدة التي تحفل بكل ما أراد له العربي أن يظل شاهدا على مكارمه التي لم يتنازل عنها وإن أخلف بعضها، بسبب ما حتمته عليه الظروف القاسية والحاجة الملحة إلى الانتصار على القسوة من أجل البقاء.

خاتمة:

كانت هذه بعض الأمثلة العامة عن فضائل العرب قبل الإسلام. وإن ما كان يجمعها كلها أتمها صدرت من ظروف الاستجابة للبيئة، والاتصال بمن جاورهم من الأمم، والنشاط العملي في حياتهم اليومية وفقا للتنظيم الاجتماعي الذي عرفوه.

لقد صور الجاهلي كثيرا من عادات العرب الأخرى التي صنفت قيما سامية في تاريخه؛ مثل تأخير البكاء على القتل وتحريم الخمر حتى يؤخذ بالتأثر له، وعقر الزواجل على قبور الأبطال والسادات، وتعليق حلبي النساء على اللديغ للشفاء، وإيقاد النيران لجلب الأضياف، ونحو ذلك من شتى عاداتهم التي يمثلها الشعر الجاهلي أدق تمثيل.

لقد كان الشعر صورة لأخلاق العرب في الجاهلية، ومن خلاله تعرفنا على أهم أخلاق العربي قبل الإسلام: كالشجاعة والكرم والوفاء والأنفة والإباء والحمية والأخذ بالتأثر. ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم، فقد بعثتها فيهم حياة الصحراء

الأعشى. (2012). الديوان. بيروت، لبنان: مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع.

التميمي، معمر بن المنثى (أبو عبيدة). (2003). أيام العرب قبل الإسلام. جمع وتحقيق: عادل جاسم البياقي. ط01. ج02/01. بيروت، لبنان: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

الجمحي ابن سلام. (1980). طبقات فحول الشعراء (المجلد 1). تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، السعودية: مطبعة المدني.

الخنساء. (1996). الديوان، بيروت، لبنان: دار صادر.

الدسوقي، عمر. (1951). الفتوة عند العرب. الفجالة، مصر: مكتبة نهضة مصر.

الشرقاوي، عفت. (1979). دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

الشفري. (1991). الديوان، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

الطائي، أبو تمام. (1987). ديوان الحماسة. شرح: التبريزي. تحقيق: عبد المنعم أحمد صالح. بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.

الطائي، حاتم. (2002). الديوان، شرح وتقديم: أحمد رشاد، ط03. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

العساف، عبد الله خلف. (2007). الصورة الفنية في حقول التراجيدي في الشعر الجاهلي المجلد 13. عدد: 21. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها: مكة المكرمة، السعودية.

العشماوي، محمد زكي. (1980). النابغة الذبياني مع دراسة للقصيد العربية في الجاهلية. بيروت، لبنان، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

الفاخوري، حنا. (2003). الموجز في الأدب العربي وتاريخه. ج01. بيروت، لبنان: دار الجليل.

القيرواني، ابن رشيقي. (1934). العمدة ج01، تقديم: محمد محي الدين عبد الحميد، ط01، القاهرة، مصر: مطبعة حجازي.

القيسي، نوري حمودي. (2004). الفروسية في الشعر الجاهلي. ط01. بيروت، لبنان: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

أمين، أحمد. (1964). فجر الإسلام، ط09. القاهرة، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

أنس الوجود، ثناء. (2000). دراسات تحليلية في الشعر القديم. القاهرة، مصر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

تأبط شرا. (1973). الديوان. تحقيق: سلمان داوود الفرغلي وجبار تعبان جاسم. النجف الأشرف، بغداد، العراق: مكتبة الآداب.

خليف، يوسف. (1966). الشعراء الصعاليك، ط02. القاهرة، مصر: دار المعارف.

ضيف، شوقي. (د ت). العصر الجاهلي، ط09. القاهرة، مصر: دار المعارف بمصر.

القاسية وما فيها من جذب فكان الغني يفضل على الفقير، وكثيرا ما كان يذبح إبله في سنين القحط يطعمها عشيرته، كما يذبحها قرير العين لأضيافه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه.

ومن مظاهر الشجاعة تلبية النداء وقت الخطر، والنهوض للدفاع عن القبيلة وقت الحرب، والنهوض بعبء الأخذ بالثأر، وهي عادة استحكمت في نفوس الجاهليين إلى حد بعيد، إلى درجة أن أصبحت عقيدة ينبغي على الشخص اعتناقها، وإلا لحقت به اللعنة ونال شتيمة الدهر.

إنّ الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم لأنّه يمثلها أصدق تمثيل، ممّا جعله سجّلا لتاريخ العرب قبل الإسلام.

إذا كان العرب في الجاهلية لم يستطيعوا تخليد حياتهم وتاريخهم في كتاب، فقد خلّدوا هذا التاريخ في شعرهم الذي ضمّنوه أخبارهم وحياتهم وأسماء بلادهم وحيواناتهم، وأودعوه عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وحروبهم، حتى صار أكبر مصدر تاريخي لحياة العرب في الجاهلية. وهو - بحق - ديوان العرب ومصدرها من مصادر تاريخهم.

قائمة المراجع:

ابن أبي سلمى، زهير. (1964). الديوان. القاهرة، مصر: الدار القومية للطباعة والنشر.

ابن العبد، طرفة. (2000). الديوان، شرح: مهدي محمد ناصر، ط03. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن حلزة، الحارث. (1996). الديوان، يليه شعر بكر وأخبار حرب البسوس، إعداد وتقديم: طلال حرب، ط01. بيروت، لبنان: دار صادر.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2002). المقدمة. تحقيق: درويش جويدي. صيدا، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

ابن ربيعة، ليبد. (1996). الديوان، شرح الطوسي، ط02. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

ابن شداد، عنتر. (1983). الديوان، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مواوي، ط02. بيروت، لبنان: المكتب الإسلامي.

ابن كلثوم، عمرو. (1996). الديوان، بيروت، لبنان: دار صادر للطباعة والنشر.